جامعة الملك سعود
مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها
مجلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها (HSCA)
ردمد (ورقي): ٩٢٧٠- ١٦٥٨
ردمد (النشر الإلكتروني): ٩٨٣١- ١٦٥٨

King Saud University
King Salman's Center For Historical
and Civilization Studies Of Arabian Peninsula
Journal of Studies in the History and Civilization of Arabia (HSCA)
ISSN: 1658-9270
EISSN: 1658-9831

مجلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها، مج(٢)، ع٢، ص ص٥٧- ٨٩، جامعة الملك سعود، الرياض (١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥م)

Journal of Studies in the History and Civilization of Arabia, Vol. 2, (2), pp 57-89, King Saud University, Riyadh (1446H / 2025)

مشاهدات المغاربة في رحلاتهم إلى الحرمين الشريفين عن الحركة العلمية خلال القرن ١٢هـ/ ١٨م

أ.د. بنعيسى أحمد بويوزان
جامعة محمد بن عبدالله، فاس، المغرب
buiauzan.b@gmail.com

(قُدِّم للنشر في ١٤/ ٠٢/ ١٤٤٦هـ، وقُبِل للنشر في ٢١/ ٠٤/ ١٤٤٦هـ)

الملخص:

حاول هذا البحث أن يرصد الحركة العلمية بالجزيرة العربية من خلال الرحلات المغربية، مع التركيز على عنصرين أساسيين، هما:

أ- رصد خصائص ومميزات هذه الحركة العلمية، خاصة مع كثافة الرحلات المغربية الحجازية خلال القرن الثاني عشر الهجري، وهو ما أعطى صورة تكاد تكون واضحة عن الحركة العلمية في هذا القرن، بحيث نجد رحلات هامة في بدايته ووسطه و آخره، فاتَّضحت حالة العلم العلماء والمكتبات والمدارس والأوقاف، وإن بنسب متفاوتة بين هذه الرحلات.

ب- رصد مظاهر التواصل المتين بين المغرب الأقصى و الجزيرة العربية في فترة تأسيس الدولة السعودية ، و يتجلى هذا التواصل في مظهرين كبيرين:

١- المظهر الرسمي: والذي يظهر من خلال الرحلة التي خُصَّتْ بها إحدى زوجات السلطان المولى إسماعيل العلوي، ومعها في هذه الرحلة ابنها المولى عبد الله، سلطان المغرب بعد أبيه، والذي زوَّج ابنته لشريف مكة المكرمة بَعْد ذلك، وهو ما انعكس بقوة على الحركة العلمية بالحرمين الشريفين، خاصة فيما يتعلق بالأوقاف و المدارس.

٢- المظهر الشعبي: والمتعلق بازدياد عدد العلماء المغاربة المجاورين بالحرمين الشريفين، فازدادت -تبعا لذلك- أعداد الطلبة المتفرغين لطلب العلم.

الكلمات المفتاحية: الحركة العلمية، الرحالة المغاربة، الحرمين الشريفين، القرن الثاني عشر الهجري

Moroccans' Observations in Their Journeys to the Two Holy Mosques Regarding the Scientific Movement During the 12th Century AH /18th Century AD

Prof. Benaissa Ahmed Bouyouzan
Mohamed Ben AbdellahUniversity, Maroco
buiauzan.b@gmail.com

(Received: 14/ 2/ 1446 H; Accepted for publication: 21/ 4/ 1446 H)

Abstract:

This research has attempted to observe the scientific activity in the Arabian Peninsula through Moroccan trips, focusing on two main elements, namely:

1) Observing the characteristics and advantages of this activity, especially with the intensity of the Moroccan Hijazi trips during the twelfth century AH; which reflects a clear picture of the scientific activity in this century, as we find important trips in its beginning, it's middle as well as it's end. Thus, the state of science, Scholars, schools and endowments became clear though differently between these trips.

2) Observing the aspects of the strong communication between "AlMaghreb Alaqssa'' and the Arabian Peninsula during the founding period of the Saudi Arabia. This communication is manifested in two major aspects:

A- The official aspect: which appears during the trip that was devoted to one of the wives of Sultan Moulay Ismail Al-Alawi and her son Mawla abdulah, the Sultan of Morocco after his father, who, later, married his daughter to the Sharif of Makkah Al-Mukarramah. This marriage strengthened the scientific movement in Saudi Arabia a great deal, especially with regard to endowments and schools.

B- The officious aspect: The number of Moroccan scholars adjacent to the Two Holy Mosques increased, and accordingly the number of students, exclusively occupied with knowledge, increased.

Keywords: Moroccans, Hejaz, the Scientific Movement, the 12th Century AH.

المقدمة:

يعتبر القرن الثاني عشر الهجري، عامَ الرحلات المغربية الحجازية بامتياز، ذلك بأن الباحث في هذا الباب، سيجدُ بأن المغاربة قد وفدوا على الحرمين الشريفين خلال فترات مختلفة من هذا القرن، أَوَّلَهُ وأَوْسَطَهُ وآخِرَهُ، مما يسمح – تبعا لذلك– من أخذ صورة تكاد تكون واضحة عن مجمل الأوضاع التي كانت بالحرمين الشريفين بعامة، وعن الحركة العلمية منها بخاصة، والتي يولي لها الرحالون المغاربة –في العادة– اهتماما خاصا، لأنهم كانوا يضعون نُصْبَ أعينهم دائما، مجالسةَ الشيوخ والعلماء بالحرمين الشريفين للأخذ عنهم، اِلْتِمَاساً لبركة العلم الشريف في تلك البقاع الطاهرة، واستثمارا لشرف الزمان والمكان،كما صرح بذلك أغلب الرحالين.

لذلك، فإن الدارس لهذه الرحلات الحجازية، سيجد بأن أغلب الرحالين قد عقدوا فصولا، تتفاوت طولا وقِصَراً بين هذه الرِّحْلة أوتلك، للحديث عن العلم والعلماء والمكتبات والمدارس والمقررات بالحرمين الشريفين، خاصة وأن هذا القرن قد شهد تَنَوُّعاً ملحوظا في الرحلات، سواء من حيث تَعَدُّدُ مشاربها الفكرية والثقافية التي تنطلق منها، خاصة وأن للتصوف حضورا لافتا في الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي عموما يومئذ، أمْ من حيث النوعُ أوالنموذجُ الذي قدمته هذه الرحلات، حيث إننا نجد لأول مرة رحلةً غَيْرِيَّةً[1]، كتبها الرحالة أحمد بن عبد القادر القادري لشيخه أحمد بن محمد بن مَعْنٍ الأندلسي الفاسي، كما أننا نجد رحلة سلطانية قامت بها الأميرة المغربية خناثة بنت بكار، والدة السلطان المولى إسماعيل، كتبها محمد الشرقي بن الوزير الإسحاقي، وهي الرحلة التي أعطت دفعة هامة للحركة العلمية بالحرمين الشريفين، بتعزيز الأوقاف المرصودة للمدارس والعلماء والطلبة، خاصة وأن الاهتمام المتميز للسلاطين العلويين بالعلم والعلماء في البقاع الطاهرة، قد أثر تأثيرا إيجابيا جدا على أمرين هامَّيْنِ للغاية، رَكَّزْتُ عليهما في هذا البحث، وهما:

---

(١) الرحلة الْغَيْرِيَّةُ، هي الرحلة التي كتبها العلماء أوالأدباء أو الكتاب لغيرهم من الأمراء أو الوزراء أو الشيوخ ممن رافقوهم في رَكْبِهِمْ إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، فتكون رحلة متكاملة وصفوا فيها مشاهداتهم منذ خروجهم إلى حين رجوعهم إلى ديارهم.

أولا: أن هذا الاهتمام السلطاني بالحركة العلمية بالحرمين الشريفين، زاد من الحرص على طلب العلم لدى الطلبة المغاربة، ولدى طلبة سائرِ البلاد الإسلامية، هذا فضلا عن كثرة العلماء المجاورين بأولادهم بالحرمين الشريفين، تفرغاً للتدريس وللعبادة معًا، نظرًا لتوافر الظروف المعيشية المساعدة على هذا الشأن، وهذا ما صرّح به غير واحد من الرحالين الذين سنأتي على ذكرهم بإذن الله تعالى، خاصة وأن الأوقاف والنفقات والصدقات،كانت تتوافد من المغرب على الحرمين الشريفين بانتظام وباستمرار، وتكون في الغالب في موسم الحج، حين ينهض ركب الحاج المغربي إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج.

ثانيًا: أن هذا الاهتمام السلطاني المتميز، ساهم في تمتين العلاقات المغربية الحجازية على نحولَفَتَ إليه انتباه كبار الدارسين والعلماء المغاربة القدماء والمُحْدَثِينَ، حتى إن بعض المُحْدَثِينَ منهم، قد أَفْرَدُوا لها دراسات خاصة، بَحَثَتْ في هذه العلاقات بين الدولة العلوية الشريفة، والدولة السعودية العريقة منذ تأسيسها.

وبالتالي، فإن هذه العلاقات التي توطدت منذ أواسط هذا القرن الثاني عشر الهجري، ظلت تنمووتزداد متانة وتوطُّداً منذ تلك الفترة وإلى اليوم، ويزيد العلماء من الْقُطْرَيْنِ كليهما في استمرارها ومتانتها، نظرًا للمقام الذي يَتَبَوَّؤُهُ العلم وأهلُه في الأسرتين الحاكمتين بالمغرب والدولة السعودية.

وكل هذا، نجد له صدى واضحًا في هذه الأعمال التي نحن بصددها، مع التأكيد على أننا سنجد بأن أهم ما يميز الرحلات المغربية في هذه الفترة، أَمْرَانِ لابد من ذكرهما:

أ – أنها رحلات لكبار علماء المغرب، رحلوا لأداء فريضة الحج أساسًا، ومع ذلك لم يمنعهم مستواهم العلمي العالي من الحرص على اللقاء بعلماء المشرق ومجالستهم، بل وطلب الإجازة منهم، حتى إن بعض العلماء المشارقة –كما سنرى– تَوَاضَعَ لعلماء المغرب، فأجازهم إجازة الْأَقْرَانِ، أي بتبادل الإجازة، بِحَيْثُ إن كل عالم منهما أجاز صاحبه بسائر مروياته ومسموعاته ومؤلفاته.

ب – أنها رحلات تم كثير منها في إطار تكليفٍ من السلطان المغربي المولى عبد الله بن المولى إسماعيل العلوي، ومن بعده ابنه المولى محمد بن عبد الله العلوي، بل إن من هذه الرحلات ما كان أصحابها شخصيات كبرى ضمن الركب السلطاني، كما يظهر في حج الأميرة خناثة بنت بكار، زوجة المولى إسماعيل، أوحين زُفَّتْ الأميرة لُبَابَةُ بنت المولى محمد بن عبد الله، إلى شريف مكة المكرمة سرور بن ساعد، وقد كان في الرحلتين كلتيهما، وفدٌ من كبار علماء المغرب، لم يمنعهم عُلُوكعبهم في مختلف العلوم من مجالسة علماء المشرق، بل والبحث عنهم لملاقاتهم، إن اقتضى الأمر، كما سيتبين بإذن الله تعالى.

وعليه، فإن هذا البحث المتواضع قد حاولت فيه دراسة هذه الأمور كلها، انطلاقًا من التقسيم التالي:

- مقدمة.

١. الشيوخ والعلماء بالحرمين الشريفين:

أ – في مكة المكرمة.

ب – في المدينة المنورة.

٢. المدارس والمقررات.

٣. المكتبات بالحرمين الشريفين.

٤. أثر الحركة العلمية على التواصل بين المغرب الأقصى والجزيرة العربية.

- خاتمة.
- قائمة المصادر والمراجع.

وآمل أنني قد وفقت في هذا المسعى، والله من وراء القصد وهو سبحانه يهدي السبيل.

أولاً – الشيوخ والعلماء بالحرمين الشريفين:

من الواضح لدى كل الدارسين والمهتمين بالرحلات الحجازية المغربية والأندلسية قبلها، أن جل الرحالين خلالها، كانوا يَضَعُونَ نُصْبَ أعينهم ملاقاةَ الشيوخ والعلماء ومجالَسَتَهم، في المقام الذي يضعون فيه أداء فريضة الحج، إذ إن الأمرين لديهم لا يكاد ينفك

أحدهما عن الآخر، وبخاصة وأن موسم الحج كان يشهد وفود عدد هائل من العلماء من مختلف بلاد الإسلام لأداء الفريضة، وللتحديث والتدريس والتعليم، لِنَيْلِ بَرَكَةِ نَشْرِ العلم في الحرمين الشريفين[1]، لذلك، فإن الرحلات المغربية تُعَدُّ لدى كل الدارسين والأكاديميين بالمغرب والمشرق على حد سواء، من أهم مَصَادِرِ التَّأْرِيخِ للحركة العلمية بالحجاز، لا سيما في الحرمين الشريفين، حيث تكون سوقُ العلم نَافِقَةً جدا في مواسم الحج كما أسلفنا، لاسيَّما وأن علماء المغرب –فضلا عن طلبته– كانوا يعتبرون لقاء الشيوخ والعلماء بهذه البقاع الطاهرة المباركة، مَدْعَاةً للفخر والاعتزاز، لاجتماع شرف العلم بشرف المكان وشرف الزمان، لهذا؛ فإنهم كانوا في الأغلب الأعم، يَجِدُّون في البحث عن العلماء للأخذ عنهم والظَّفَرِ بإجازاتهم حيثما وجدوا، وإن اضطروا إلى تعديل مسار رحلاتهم، حرصا على الاجتماع بمشاهير العلماء والشيوخ، حتى إن منهم من سافر إلى الطائف لهذه الغاية[2].

لهذا، فإن الرحلات المغربية، هي بمثابة مقياس نقف من خلاله على النشاط العلمي بالحرمين الشريفين، اِزدهاراً أوفُتُوراً أومَا بَيْنَ ذلك، سواء من حيث العلماء والشيوخ، أم من حيث المدارس والمكتبات، أم من حيث المواد المُدَرَّسَةُ ومناهجُ التدريس، فضلا عن الأوقاف التي هي مدار الحركة العلمية كلها.

وقد آثرت في هذا المحور، أن أبدأ بمن لقيه الرحالون المغاربة في هذا القرن بمكة المكرمة، ومن بعدها ننتقل إلى المدينة النبوية المنورة.

---

(١) فصلتُ القول في هذا الباب –بحمد الله تعالى– في بحث عنوانه: "فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج، من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين"، والذي ألقيته بمكة المكرمة ضمن فعاليات الندوة الدولية بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ". (بويوزان، ٢٠٠٥م، ج١٣، ص٢٣١).

(٢) نلاحظ هذا مع كثير من العلماء المغاربة، وآخرهم قبل هذا القرن الثاني عشر الذي هو حقبة بحثنا المتواضع هذا، أبو سالم العياشي في رحلته المتميزة، حيث سافر إلى الطائف، وسجل معلومات قَيِّمَةً للغاية عن الأماكن التي زارها، وعن الآثار التي أفاض الحديث عنها، فضلا عن الشيوخ الذين عبَّر عن اغتباطه بالأخذ عنهم والجلوس إليهم، راجع رحلته الحجازية، (العياشي، ٢٠١١م، ج٢، ص١٥٦ وما بعدها).

أ – في مكة المكرمة:

ونبدأ بما أورده الرحالة أحمد بن عبد الله القادري (ت ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م) من العلماء بالحرم الشريف، خاصة وأن رحلته كانت على رأس هذا القرن الهجري الثاني عشر، وقد ابتدأت "غدوة يوم الاثنين المُوَفَّى عشرين من جمادى الآخرة سنة مئة وألف" (القادري، ٢٠٢٠م، ص١٧٥)، وتمتاز هذه الرحلة بأن القادري كتبها لشيخه أحمد بن محمد بن مَعْنٍ (ت١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م)[1]، وهي أول رحلة غَيْرِيَّةٍ في تاريخ الرحلات المغربية والأندلسية معاً.

والمتتبع لخطوات الرحالة القادري في هذه الرحلة، سيجد بأنه حاول جهد الإمكان رصد الحركة العلمية بالحرم المكي الشريف، من خلال ذكر من لقيه من الشيوخ مُدَّةَ إقامته وشَيْخَهُ بمكة المكرمة، والملاحظ أنه حين يأتي على ذكر من لقيه من العلماء، فإنه أحيانا يُطوِّل في تَحْلِيَتِهِ وإِطْرَائِهِ، وأحيانا أخرى يوجز الحديث عنه، فيكتفي بذكر اسمه ونسبه.

وأول من لقيه بمكة المكرمة "الفاضل الخَيِّر الحسيب أبوعبد الله محمد بن طاهر الشهير بابن رضوان الأنصاري النِّجَارِي الفاسي، القاطن بمكة"(القادري، ٢٠٢٠م، ص٢٢٢-٢٢٣)، وحين كان بعرفات، قال القادري عمن كان بصحبة الشيخ مَعْن في وَقْفَتِهِ: "وكان إمام الصلاة يومئذ، السيد الشريف الفقيه؛ العالم العفيف النزيه؛ نادرة الزمان؛ أبوالعباس أحمد بن عبد الرحمن... والسيد الشريف، النّزية العفيف؛ أبوالعباس أحمد بن عمر الحسني السجلماسي المجاور بالمدينة المنورة، وهو دَيِّنٌ خَيِّرٌ فاضل حَدَّثَ عنه بعض الفقهاء الثقات"(القادري، ٢٠٢٠م، ص٢٢٦).

وطوال مقام القادري مع شيخه بمكة المكرمة، لم يذكر من لقيه من العلماء بها إلا هذين العَالِمَيْنِ، وكلاهما مغربيٌّ، وكانت له صلة سابقة بهما أيام طلب العلم بالمغرب، وسيأتي على ذكرهما مرة أخرى أثناء وجوده وشيخَه بالمدينة المنورة.

---

(١) قام محقق هذه الرحلة بترجمة مفصلة لهذا الشيخ في المقدمة (القادري، ٢٠٢٠م، ص٤٤).

وبعد أحمد بن عبد القادر القادري بعامين، قام العالم الكبير أبوالحسن علي بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م) برحلته الحجازية، والتي كانت بدايتها" يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الأولى عام أحد ومئة بعد الألف"(اليوسي، ٢٠١٧م، ص ٤٩)، لكن الملاحظ، أن اليوسي لم يأت على ذكر أي عالم من علماء المشرق عموما، وعلماء الحرمين الشريفين خصوصا، وقد كانت إقامته بمكة المكرمة وجيزة، إذْ لم تتجاوز خمسة عشر يوما (اليوسي، ٢٠١٧م، ص١٤٣).

ومع أنه يصعب تفسير غياب لقاء العلماء بالحرمين الشريفين في رحلته، وبخاصة حين يتعلق الأمر بِعَلَمٍ من كبار العلماء بالمغرب، فإنه مع ذلك، يمكن تَلَمُّسُ بعضِ الأسباب بما أُثِرَ عن أبي الحسن شخصيا، فقد ذكر الرحالة الوزير الإسحاقي (ت بعد ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م) في رحلته قولا منسوبا إلى اليوسي، فقال: "وأخبرني بعض أصحابنا أنه سمع شيخنا أبا علي الحسن اليوسي، بعدما رجع من حجته، يقول:"ما بقي بالبلاد المشرقية من تُشَدُّ إليه الرحال في طلب العلم"(الإسحاقي، ٢٠١٧م ، ج٢، ص٤٢٤)، ثم إنني تتبعت ما قاله اليوسي، رحمه الله، عن العلم والرحلة في طلبه، وخاصة في كتابه "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"، فوجدت بأنه لم يشر مطلقا إلى الرحلة إلى المشرق لطلب العلم(اليوسي، ٢٠١٣م، ص٣٦٠)، لأن كل شيوخه، وهم جمهور كثير، هم من علماء المغرب وفقهائه.

هذا إلى جانب أنه – رحمه الله – كان في مختلف أطوار رحلته، كثيرَ التَّبَرُّم والشَّكْوَى، وهو في هذا قريبُ النَّفَسِ والطَّبْعِ من العبدري الحيحي في رحلته المشهورة.

بعد رحلة اليوسي، رحمه الله، قام أبوالعباس أحمد بن محمد الناصري الدرعي برحلته الحجازية، وقد بدأت "يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام أحد وعشرين ومئة وألف"(الدرعي، ٢٠١١ م، ص٩٠)، والظاهر أن الدرعي الناصري في رحلته هذه، حين يأتي على ذكر من لقيه من العلماء بمكة المكرمة في رحلة الأولى عام ستة وتسعين وألف، فإنه يُنَبِّهُ على ذلك حتى لا يختلط الأمر على القارئ (الدرعي، ٢٠١١م، ص٣٩٩)، وقد ذكر

قدرا صالحا من العلماء بمكة المكرمة، حتى إننا نلاحظ أنه يطوِّل أحيانا في ترجمة بعضهم، فيذكر مؤلفاتِهِمْ، بل وأبناءَهُم من العلماء، وأحيانا أخرى يكتفي بالإشارة إلى أسمائهم أوكُنَاهُمْ فقط، قال:" وصلينا الجمعة بمكة، وخطب الخطيب خطبة السابع، وهو ولد الشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية، ووالده هذا، رأيته والتقيت به من باب منزلنا بالمسجد الحرام، وأخبرني أنه جارُنا هو وولده الخطيب المذكور، وآخر أصغر منه، وسألته عن بعض شراح الهمزية، وذكر أنه عنده ابن حجر(كذا في الأصل)، وقلت له: أريد أن أنظر فيه الشيخ مرزوق والكفافي، وبعث ولده فأتى به، وأوقفني أيضا على الثالث والأول من البرموى على البخاري، وأخبرني أن الثاني كان عند الشيخ عبد الله بن سالم البصري، ورأيته، وأكثرُ نَقْلِهِ عن الكرماني والزركشي وهو حاشية، والشيخ عبد الله هذا التقيت معه بالمسجد الحرام يوم دخولنا، هو والشيخ محمد النخيلي، وفرح بنا، ووقف معنا في كراء المنزل، تقبل الله منه، وذهبنا لداره أيضا يوم الجمعة، ووجدناه في بيتِ كُتُبِهِ، والْكُتُبُ مُحْدِقَةٌ به يمينا وشمالا ووراء وأمام، ورأينا عنده مسند الإمام أحمد في ثلاثة مجلدات كبار، وأخبرني أنه كتب نسخة من اليونانية بيده، (كذا في الأصل) وشرع في شرح البخاري، وبلغ فيه الحج، وزعم طلبةُ مكة أنه فاق أهل الحرمين في الحديث، وفي غيره من سائر العلوم، وهو شافعي المذهب، وأجازنا سائر مقروءاته ومروياته ومسموعاته"(الدرعي، ٢٠١١م، ص٣٦٦ – ٣٦٧).

ثم إنه اجتمع بِمِنى "بالشيخ محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن، مفتي الهند، وهو رجل عالم، له تآليف على رجال البخاري، واختصر البخاري في مجلد، حذف الأسانيد فيه والمكرر، وهو ضرير كبير السن، به مرض ألزمه بيته... ونزل بإزائنا (بعرفات) الشيخ عبد القادر بن أبي بكر، مفتي الحنفية، وأتانا ضحى مع ولدين صغيرين له" (الدرعي، ٢٠١١م، ص٣٧٠ – ٣٧١).

على أن الناصري الدرعي أَجْمَلَ الحديث عَمَّنْ لقيه من علماء مكة المكرمة في فصل موجز عنوانه: "ذِكْرُ من لقيته بالحرم المكي من الأئمة"، فقال: "الشيخ أحمد النخيلي الشافعي والشيخ عبد الله بن سالم البصري الشافعي، والشيخ محمد تاج الدين، مفتي الحنفية، وابناه

الشيخ عبد المحسن والشيخ عبد المنعم، والشيخ عبد القادر ابن أبي بكر الحنفي المفتي، كان تولى الْفُتْيَا قَبْلُ، والشيخ محمد أكرم الهندي، والشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي، الشافعي، وله تآليف على التاريخ، ذكر فيه علماء القرن الحادي عشر وصلحاءه وأدباءه وملوكه وشعراءه... والشيخ محمد بن عبد الباقي الاسكندراني المالكي، والشيخ إدريس بن أحمد الصاعدي الشافعي... والشيخ عبد الرحمن السندي، والد أكرم، والشيخ عبد الكريم الهندي"(الدرعي، ٢٠١١م، ص ٣٩٩).

بعد هذه الرحلة الناصرية، قام الإمام العلامة الحافظ أبوعبد الله محمد بن الطيب الشرقي برحلته الحجازية، وكانت بدايتها "صبيحة يوم الأربعاء الرابع من رجب الفرد الحرام، سنة تسع وثلاثين ومئة وألف لهجرة المصطفى صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحابته الكرام"(ابن الطيب، ٢٠١٨م، ج١، ص١٥٦)، وهذه الرحلة من أمهات الرحلات المغربية في هذا القرن، على الرغم من أن أَصْلَهَا كان قد سُرِقَ من المؤلف أثناء إيابه من الحج، وهي غَنِيَّةٌ جدا بمادتها المعرفية المتميزة التي تُنْبِئُ عن عُلُوكَعْبِ صاحبها في مختلف العلوم، حتى إنه يعتبر من آخر الحفاظ بالمغرب الأقصى، ومع ذلك، فإنه كان مهتما بلقاء علماء مكة المكرمة وشيوخها، سواء كانوا من أهل الحجاز، أم من أهل المغرب المجاورين، ويُبدي لهم من التواضع الجمِّ ما يبديه، قال رحمه الله: "ولقينا هنالك صاحبنا الفقيه، العلامة، المشارك، الحافظ، الدَّرَّاك، أبا عبد الله محمد بن عبد الله الفيلالي، وولده الأنجب أبا عبد الله السيد محمد، جاء بِنِيَّةِ الحج والعمرة من المدينة المنورة... وكنا نجول معه في مسائل متنوعة من الفنون العلمية؛ نحوا، وفقها، وبيانا، وحديثا، وغير ذلك"(ابن الطيب، ٢٠١٨م، ج٢، ص٣٧٧ – ٣٧٨).

ثم بَسَطَ الحديث عمن لقيه بمكة المكرمة، فقال: "ولقيت من علمائنا الشيخ محمد بن محمد قاضي زاده الأنصاري الشهير بالقاضي عيد، ورد علينا أولا، ودعانا إلى داره، فأسعفناه رغبة في إدخال السرور عليه، واغتناما لدعوته، لأنه رجل طعن في السن جدا يناهز المئة، مع تعلقه بأسباب العلم، وتمسكه بأذيال الْحِلْمِ، وخضنا معه في مسائل علمية، متنوعة إلى عربية،

وحديث، وأدب، وغير ذلك... ورأينا الشيخ أبا العباس أحمد ابن حجر، مدرس قمة الشمع (كذا في الأصل) من الحرم، وهو رجل لا بأس به، له معرفة بالحديث كأسلافه رحمهم الله، ورأينا الرجل المسن الصالح الشيخ جعفر... ذهبت إليه إلى داره بناحية باب العمرة، أحد أبواب الحرم الشريف، فألفيته في سن عالية، وله أخلاق كريمة واسعة وحسن ملاقاة، فأكثر من الترحيب بنا، وأظهر من التواضع ما يرفعه الله به، وخاطبني مخاطبات لطيفة حسنة... ورأينا الشيخ أبا محمد عبد القادر بن يحيى الحنفي اليمني، أحد خطباء الحرم وأئمته، وهو رجل له أخلاق حسنة وسَمْتٌ حسن، مع حسن خطابته ولطافتها، وفصاحة لسانه، وَرِقَّةِ صوته وتُؤَدَتِهِ، وكان يُبْدِئُ خُطَباً محبَّرة جامعة لا بأس بها، مع إتقان الحفظ، ومراعاة المعنى واللفظ، ورأينا غير هؤلاء ممن لم نعرف أسماءهم، ولم نشرب ماءهم"(ابن الطيب، ٢٠١٨م، ج٢، ص ٣٧٨ – ٣٨٠).

بعد رحلة أبي عبد الله الشرقي الفاسي بنحو خمسة أعوام، قام أبومحمد الشرقي بن محمد الإسحاقي الذي ذكرناه آنفا، برحلته التي دَوَّنَهَا حين كان ضمن الركب السلطاني المرافق للأميرة خناثة بنت بكار، والدة السلطان محمد بن عبد الله، وهي الرحلة المشهورة التي كان لها الفضل الكبير في تمتين العلاقة بين المغرب الأقصى والحجاز، وقد ابتدأت" يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الثانية عام ثلاثة وأربعين ومئة وألف بعد صلاة الجمعة"(الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج١،ص٢٣٦)، ولكن الخروج الفعلي للحج كان "يوم الخميس، وهو الخامس والعشرون من جمادى الثانية من السنة"(الإسحاقي، ٢٠١٧، ج، ص٢٤٩).

لقد مَرَّ بنا بأن الإسحاقي حكى عن شيخه أبي الحسن علي اليوسي بأنه قال: "لم يعد بالديار المشرقية من تُشَدُّ إليه الرحال لطلب العلم"، فلما كان الإسحاقي في القاهرة، واطَّلَعَ على الحالة العلمية بها، قال: "وبالجملة، فالعلم بالبلاد المشرقية كغيرها، قد وقف على ثنية الوداع، وهَمَّ مُزْنُهُ بالإقلاع"(الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص٤٢٤)، ومع ذلك، فإنه حين وصل إلى الحرمين الشريفين، عقد بابا خاصا في رحلته، عنوانه "ذكر من لقيناه بمكة شرفها

الله من العلماء الأعلام" وقد أورد فيه قَدْراً صالحا ممن لقيهم، وهم: "سيدي عمر البار وهو كاسمه بار، باعلوي الحسيني، وارث أسرار سيدي عبد الله الحداد اليمني، وأبوعبد الله سيدي محمد بن أحمد عقيلة المكي، أطال الله بقاءه، والشيخ محمد الطبري، شيخ المقام الخليلي نفع الله به، وأبوالفضل تاج الدين الحنفي، مفتي الحنفية بالحرم المكي، والسيد عبد الله ابن المرحوم يحيى أفندي ابن جعفر الواعظ، من أهل الوجاهة بالحرم الشريف، والشيخ الفقيه العالم العلامة مفتي الشافعية بالحرمين الشريفين، مولانا الشيخ زين العابدين بن سعيد المُنُّوفِي، والشيخ تاج الدين بن عارف المُنُّوفِي، من قرابة السيد زين العابدين المذكور قبله، والسيد عبد الله السَّكَنْدَرَانِي الضرير، رجل جعل الله قوة بصره في بصيرته، فما ترى أعجب منه في نطقه وصمته وسَيْرِهِ وسِيرَتِهِ، دخلنا عليه في منزله قرب باب العمرة المُفْضِي إلى المسجد الحرام متصلا به، وحدثنا بمصنفاته في التفسير والحديث وعلم الكلام وغير ذل"(الإسحاقي، ٢٠١٧،ج ٢، ص٥٥١ – ٥٧٩).

ولم يَنْسَ الإسحاقيُّ التَّعْرِيجَ على ذكر من لقيه من علماء المغرب المجاورين بالحرم المكي الشريف، جَرْياً على عادة المغاربة في مثل هذا المقام، ومنهم السيد محمد بن الفقيه العلامة الرحالة الزاهد الورع، السيد محمد بن سليمان الروداني(الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص٥٧٩ – ٥٨٠).

ولعله من الواضح أن الإسحاقي، وعلى الرغم من التزاماته الكثيرة مع الأميرة بالحرم المكي الشريف، إلا أنه أبى إلا أن يُتْحِفَ رحلته بذكر علماء مكة المكرمة، واجتهد في تحليتهم غاية الاجتهاد، خاصة وأنَّ منهم من كان من أهل التصوف الذي كان قد اكتسح العالم الإسلامي يومئذ، هذا فضلا عن ذكر ما تيسر من مؤلفات بعضهم. ولا أشك في أن الإسحاقي قد اجتهد في الاتصال بالعلماء والشيوخ بمكة المكرمة، لِمَا عَلِمَهُ من أن الأميرة خناثة بنت بكار، عازمة على شراء دار بالقرب من باب العمرة من المسجد الحرام، لتجعلها وَقْفاً على طلبة العلم.

بعد رحلة الإسحاقي، تأتي الرحلة الحجازية لأبي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي (ت ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م)، وكانت "سنة اثنين وخمسين ومئة وألف(الحضيكي، ٢٠١١م، ص٧٦)"[1]، لكن الملاحظ في هذ الرحلة – على أهميتها - أن الحضيكي لم يشر إطلاقا لا إلى العلم ولا إلى العلماء أثناء مقامه بمكة المكرمة، مع أنَّ مِنْ بَيْنِ أَهَمِّ أهدافه من وراء رحلته للحج، طَلَبُ العلم ومجالسةُ الشيوخ، فاكتفى بِسَرْدِ مناسك الحج ومزارات مكة المكرمة[2].

بعد مدة طويلة من رحلة الحضيكي، قام محمد بن عبد السلام الناصري التمكروتي برحلته الحجازية الشهيرة، والتي كانت "يوم الخميس ثالث جمادى الثانية سنة ست وتسعين – بتقديم المثناة – ومئة وألف"(التمكروتي، ٢٠١٨م، ج١، ص١٠٩).

وقد عبَّر الناصري التمكروتي في حديثه عن العلم والعلماء بمكة المكرمة، بمثل ما عَبَّرَ به أبوالحسن اليوسي والوزير الإسحاقي من قبل، وربما يمكن أن نضيف إليهم الحضيكي أيضا، بِسُكُوتِهِ عن ذكر كل ما له علاقة بالعلم والعلماء بمكة المكرمة خصوصا، فقد قال الناصري التمكروتي: "إعلم –وفقنا الله تعالى وإياك– أن مكة اليوم، ليس بها من يُرْجَعُ إليه في المعضلات ! ولا من يَصْلُحُ للمثول بين يديه، وقديما في زمن المحب الطبري، قال العبدري: «ضَعُفَ العلم في هذه البلاد لِضُعْفِ العيش بها، والناس مع الدنيا وصاحبها»، وأما المالكية، فلم أَرَ بها –بعد البحث– إلا المجاورين منهم، وأولاهم بالتقديم، الشيخ أبوزيد –المذكور قبل– وله ممارسة بالعربية واللغة والقراءة وغيرها... وأما الحنفية كالشافعية، فَلَهُمُ اليد الطُّولَى في الحرمين الشريفين من طلبة وغيرهم، ومنهم الأئمة والقضاة والمفتون، ولم أَلْقَ إذ ذاك – بعد البحث– من يصلح الأخذ عنه، وأما الحنابلة،

---

(١) هنا لابد من الإشارة إلى أن لأبي العباس الهلالي السجلماسي ١١١٤هـ–١١٧٥هـ، "رحلة التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام"، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، الطبعة الأولى (وجدة: مطبعة الجسور المغرب، ٢٠١٢م)، لكن مؤلفها توقف عن الكتابة حين وصل إلى مدينة تَوْزَر التونسية.

(٢) استغرق الحديث عن كل هذا من الصفحة ٩٩ إلى الصفحة ١٤٧ من الرحلة.

فما أَضْعَفَ مَذْهَبَهُمْ في مصر والحرمين ! وأكثرهم اليوم بالشام، وفيما وراء النهر، وغَالِبُهُمْ – على ما يحكى – أَهْلُ عَقَائِدَ فَاسِدَةٍ فيما بين رافضي وغيره، ولم أَلْقَ بمكة منهم إلا إِمَامَ مقامِهم، وهو الشيخ علي، فهو يَدَّعِي معرفةَ فِقْهَ ابْنِ حنبل، ويفتي في مذهبه من غير منازع له" (التمكروتي، ٢٠١٨م، ج٢، ص٦٩– ٧٠).

ولعل المُمَيِّزَ في كلام الناصري التمكروتي أعلاه، أنه يصرح بأنه بَحَثَ عن العلماء والشيوخ، وبذل جهدا في اقتفاء أثرهم، مع أنه كان من كبار علماء المغرب يومئذ، لكنَّ ذلك لم يمنعه من البحث عن علماء الحرمين الشريفين لِلِّقَاءِ بهم، ولعله في تلخيصه للحالة العلمية للفقه الإسلامي بمذاهبه الأربعة في عام حَجَّتِهِ، تِبْيَانٌ لهذه الحالة التي كان عليها العلم والعلماء بالمشرق عموما، ثم إنه وهو يتحدث عن الفقهاء الحنابلة، عَمَدَ إلى صيغة التَّمْرِيضِ، ولعله لم يكن مُقْتَنِعاً بما حُكِيَ له عنهم، ولا أستبعد كَوْنَ هذه التُّهَمِ مما كان يُرَوَّجُ عن قصد بين الناس، لَمَّا بدأت الحركة الإصلاحية بالجزيرة العربية مع ظهور الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله، ولعل ما يُسَوِّغُ هذا، قولُه بأن "الحنفية كالشافعية، فَلَهُمُ اليد الطُّولَى في الحرمين الشريفين من طلبة وغيرهم"، لأن المذهب الحنفي،كان يومئذ هو المذهب الرسمي للعثمانيين، وبالتالي، فإن ظهور أي مذهب مُصْلِحٍ مُنَافِسٍ، لابد من تَشْوِيهِهِ وتَشْوِيهِ سُمْعَةِ الدَّاعين إليه، وبخاصة في موسم الحج الذي ينبغي استغلاله على هذا الوجه الذي تَفَطَّنَ له الناصري، فَعَبَّرَ عنه بهذه الصيغة.

كما أن الناصري، قد ذكر بأنَّ مِنْ بَيْنِ مَنْ لَقِيَهُ من العلماء بمكة المكرمة "الشيخ المنيس، يعرف هناك بالتونسي، وهو في الحقيقة الزواوي، اجتمعتُ به، وذهب بي لِبَيْتِهِ لما خَتَنَ ولدا له، وأضافني في جماعة من الفضلاء، وله ممارسةٌ مَا بِفِقْهِ مالك"(التمكروتي، ٢٠١٨م، ج٢، ص٧٠).

كما نجده في موضع آخر من الرحلة، يصرح بِبَهْجَتِهِ وغِبْطَتِهِ حين وُفِّقَ في لقاء بعض العلماء الذين كان له بهم اهتمام خاص، ورَغْبَةٌ أكيدة في لقائه، حيث قال:" نعم، مِنْ مِنَنِ الله تعالى عَلَيَّ، وعظيم مَوَاهِبِهِ لَدَيَّ، أنِ اجتمعتُ– بعد البحث التام عن الواردين من سائر

الآفاق تجاه البيتِ، قُبَالَةَ الميزاب- بمحدِّثِ الشام في وقتنا، وهو الشيخ الإمام أبوالعباس أحمد بن عبيد العطار الشافعي، إمام مسجد دمشق والمُدَرِّسِ به... ثم طلبت منه الإجازة، فَامْتَنَعَ إِلَّا بِأَنْ أُجِيزَهُ كَوَلَدِهِ معه، وقد صَاحَبَهُ، واسمه الشيخ عبد الوهاب، يَفْعَلُ كُلٌّ مِنَّا مَا طَلَبَهُ مِنْهُ صَاحِبُهُ، بعد قوله: على شريطة إجازة الأقران، ونص ما أجازني به وكتبه لي بخطه تجاه الكعبة الشريفة..." (التمكروتي، ٢٠١٨م، ج٢، ص ٧١ – ٧٢).

فلا يخفى ما في كلامه هذا من دلالات متعددة، تَنِمُّ عن تمكنه من ناصية العلوم الشرعية، حتى إن هذا الشيخ طلب منه تبادل الإجازة، فأجاز بعضهما بعضا إجازة الأقران في المستوى العلمي، لأن كلاًّ منهما يفتخر بأن يكون صاحبه ممن أخذ عنه وأجازه. وكأني بالناصري التمكروتي، وهو يُحِسُّ مع مستواه العلمي الغزيز، بأن عليه أن يختار من العلماء من يلتقي به ليكون أهلا للاستفادة منه، كما حصل مع هذا الشيخ، إِذْ إنه كثيرا ما سأل عن بعض الأمور التي أثارت اهتمامه، لكن الأجوبة التي تلقاها لم تشْفِ غَلِيلَهُ، كما صرح بذلك غير ما مرة، بل إنه أَضْرَبَ حتى عن ذكر اسم العالم الذي سأله، وإن صرح بأنه من علماء مكة المكرمة(1).

ب – في المدينة المنورة:

إذا انتقلنا إلى اسْتِجْلَاءِ بعض مَعَالِمِ صورة العلم والعلماء بالمدينة النبوية المنورة من خلال هذه الرحلات التي مرت بنا، فإننا لا نكاد نعثر إلا عن النَّزْرِ اليسير منها، خاصة وأن مُقَامَ رَكْبِ الحاجِّ المغربي - الذي عادة ما يكون مع الركب المصري – لا يلبث في المدينة المنورة إلا ثلاثة أيام في الغالب، ومع ذلك، فإننا نَظْفَرُ ببعض النُّتَفِ التي تُنْبِئُ -بشكل من الأشكال- عن حالة العلم والعلماء والشيوخ بالمدينة المنورة، خلال هذا القرن الثاني الهجري، وسنلاحظ بأن أغلبهم كانوا من المغاربة المجاورين، كما مَرَّ بنا، قبل قليل، مع الناصري التمكروتي.

---

(١) راجع مثلا، حين سأل عالما عن حفرة مُرَخَّمَةٍ بِجِوَارِ الكعبة المشرفة بما يلي الْحِجْرَ. (التمكروتي، ٢٠١٨م، ج٢، ص٤٤).

ففي"نسمة الآس في حَجَّةِ سيدنا أبي العباس"، نجد بأن أحمد بن عبد القادر القادري، وقد دخل المدينة المنورة مع شيخه مَعْنٍ في المحرم من سنة واحد ومئة وألف، لا يكاد يذكر شيئا لا عن العلم ولا عن العلماء بالمدينة المنورة، حتى إنه اكتفى بالإشارة إلى الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الذي لقيه من قبلُ في مكة المكرمة، قال القادري عن شيخه مَعْنٍ: "فسار مع جماعة من الأصحاب، وفيهم السيد الفقيه أبوالعباس أحمد بن عبد الرحمن المجاور هنالك"(عبد القادر، ٢٠٢٠م، ص ٢٤٦).

وأما أبوالعباس أحمد بن محمد الناصري الدرعي في رحلته، ففي يوم دخوله إلى المدينة المنورة، قال:" فتلقانا المفتي خارج منزله على رِجْلَيْهِ، ولَوَاعِجُ الْوِدَادِ تبدوعلى عَيْنَيْهِ"(الدرعي، ٢٠١١م، ص ٤٦٦).

ثم إنه بعد ذلك خصص فصلا موجزا من رحلته، للحديث عمن لقيهم من المشايخ بالمدينة المنورة، وقد أتى فيه على ذكر جملةٍ منهم بإيجاز مَلْحُوظٍ، فقال:"الشيخ أحمد الأنصاري، وصِنْوُهُ الشيخُ عبد الرحيم والشيخُ عبد الكريم، ثم العباسيُّ، وابنه الشيخُ طاهر بن شيخنا الشيخ إبراهيم الكردي... والخطيبُ بمسجده صلى الله عليه وسلم الشيخ إبراهيم البري، وبالسيد الأمجدِ الشيخِ عبد الكريم بن عبد الله الخليفي العباسيِّ، الخطيبِ والإمامِ بمسجد سيد الأنام صلى الله عليه وسلم... وإمامُ مسجد قباء الشيخُ صالحُ بن أحمد المطري... وشيخنا الْعَلَّامَةُ الدَّرَّاكَةُ الْفَهَّامَةُ، الْمُلَّا بن إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشمراني... وخطيبُ الحرم الشيخ إسماعيل، قرأت عليه حديث "إنما الأعمال بالنيات"، فأجازني"(الدرعي، ٢٠١١م، ص٥١٧ – ٥١٩ - ٥٢٠ – ٥٣٢)، ثم إنه لم يغفل عن ذكر من لَقِيَ من علماء المغرب المجاورين بالمدينة المنورة، ومنهم" سيدي محمد بن أحمد الْأَخْصَاصِي...وهو من أَجَلِّ الْإِخْوَانِ، وأَهْلِ الصدق في السر والإعلان، ومن عباد الله الصالحين، والعلماء العاملين"(الدرعي، ٢٠١١م، ص٦٠٣).

وهذا الإيجاز، عَمَدَ إليه أيضا الرحالة أبوعبد الله محمد بن الطيب الشرقي، بل إنه أَكْثَرُ إيجازاً في ذكر من لقيهم بالمدينة المنورة، فقال:"وورد علينا صاحبنا ومحبنا الفقيه العلامة

أبوعبد الله الفيلالي المذكور فيمن لقيناه بمكة... ولقينا في المسجد النبوي أيضا صاحب والدنا الفقيه الناسك، الخَيِّرِ الصالح، الشيخ سليمان الحصيني"(ابن الطيب ٢٠١٨، ج٢، ص٤٤٦– ٤٤٧)، وعند الخروج من المدينة المنورة، التقى بالشيخ يوسف الشرقاوي، خطيبِ عرفات، المتوجه بصدد ذلك من مصر"(ابن الطيب، ٢٠١٨، ج٢، ص٤٥٧).

وبهذا الإيجاز نفسه، نجد الوزير الإسحاقي يُعَدِّدُ من لقيه بالمدينة المنورة، فَذَكَرَ: "مفتي الشافعية بالمدينة المنورة سيدي زين العابدين الْمُنُوفِي" (الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص٦١٦)، و"الفقيه الأديب السيد محمد بن سعيد بن الشيخ عبد الكريم الأنصاري الخزرجي المدني...والفقيه الأديب السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة الشريفة سابقا، الخطيبُ والمدرسُ والإمامُ بِحَرَمِ خَيْرِ الأنام، وكتب معنا مكتوبا لمولانا أمير المؤمنين، مولانا عبد الله نصره الله، وبعث له شيئا من بَرَكَةِ المدينة، مَحَبَّةً فيه وتَوَدُّداً إِلَيْهِ جزاه الله بالخير"(الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص٦٤٩ – ٦٥٢)، ولا يخفى ما في هذه العبارة الأخيرة من دلالة بالغة على حرص علماء الحجاز على التواصل مع سلاطين المغرب، لتأكيد الروابط المتينة بين المغرب والحجاز، مما سيأتي الحديث عنه مفصلا في المحور الثاني بإذن الله تعالى.

أما الحضيكي السوسي، فإنه حين عمد إلى الحديث عن العلم والعلماء بالمدينة المنورة، فقد اكتفى بإشارات عابرة إلى من كان فيها من الشيوخ، دون التصريح بلقائهم أوالأخذ عن أحد منهم، فقال: "وفيها من العلماء يومئذ:سيدي محمد الدَّقَّاق السلاوي من أهل المغرب،وسيدي أبوعبد الله ابن الطيب الفاسي، من أهل المغرب أيضا، وهما بأولادهما سَاكِنَانِ، وسيدي محمد بن السيد عبد العزيز الرسموكي، تَجَرَّدَ للعبادة، وهو ممن تُوُسِّمَ به الخير، ويُظَنُّ به الصلاح، وسيدي محمد حياة، من علماء الدين، كذلك الهندي أوالسندي، وغيرهم، فالله يجازيهم عن الإسلام خيرا"(الحضيكي، ٢٠١١م، ص١٧٣).

ويبدوأن الحضيكي كان قد عزم منذ البداية على مغادرة الحرمين الشريفين، وعَدَمِ طَلَبِ العلم بهما، لِمَا كان قد عَزَمَ عليه في نفسه بأن يستقر بالقاهرة لهذا الغرض، فقال:"ثم إن

صاحبنا سيدي سعيد بن عبد الرحمن، وطَلَبَةٌ من أهل سُوسٍ، جاوروا بالمدينة، ورَاوَدُونَا بالمجاورة، وعزمت عليها بمصر (الحضيكي، ٢٠١١م، ص ١٧٤ – ١٧٥)"، وحين استقر به المقام بالقاهرة، سرد تراجم طويلة وافية لمن جلس إليهم من علماء المالكية بالأزهر الشريف.

وحين نتوقف مع محمد بن عبد السلام الناصري التمكروتي، نجده يستهل الحديث عن العلم والعلماء بالمدينة المنورة، بقوله: "والْبَلَدُ الطَّيِّبُ اليومَ،كادت أن تَعْرَى من مُتَعَاطِي العلمِ، سِيَما مَذْهَبَ مالك وأحمد" (التمكروتي، ٢٠١٨م، ج ٢، ص ١١٨)، ومع ذلك، فقد ذَكَرَ من لقيه بها، فقال:" وأمثل من رأينا بها، المُسِنُّ البركةُ الشيخ محمد بن عبد الله المالكي–به شُهِرَ– ذهبت إلى باب داره فزرته، وأخذت عنه وأجازني...والشيخ علي بن محمد بن علي الشرواني... وهو حنفي المذهب"(التمكروتي، ٢٠١٨م، ج٢، ص ١١٨ – ١١٩)، ثم خَتَمَ بِذِكْرِ من لقيه من العلماء المغاربة المجاورين، ومنهم "سيدي علي بركة الدقاق المغربي من رباط الفتح بسلا،... ومنهم الشيخ محمد بن خالد بن أبي بكر الجعفري، مفتي المالكية وخطيبهم بمكة ثم انتقل إلى المدينة مجاورا... والسيد عبد الرشيد الشنكيطي المغربي، ومنهم مولانا إبراهيم المغربي الرباطي والشيخ عبد الكريم بن محمد السمان"(التمكروتي، ٢٠١٨م، ج٢، ص ١٢٠ – ١٢١).

ثانيًا – المدارس والمقررات:

الواقع أننا لا نكاد نعثر على شيء مما يتعلق بالمدارس التي كانت تأوي طلبة العلم يومئذ بالحرمين الشريفين في هذه الرحلات خلال هذا القرن، ما عدا ما أسهب الوزير الإسحاقي في الحديث عنه، حين عزمت الأميرة المغربية خناثة بنت بكار على شراء دار تقع بباب العمرة من المسجد الحرام، لِتُحَبِّسَهَا على طلبة العلم، والتي اشترتها بمبلغ مالي ضخم، وأوقفتها على طلبة العلم من سائر بقاع الإسلام، ففي سياق حديثه عن الشيخ محمد بن سليمان الروداني المغربي الذي التقاه بمكة المكرمة، قال: "وقد وقف معنا هذا الفقيه لشراء الدار المباركة التي اشْتَرَتْهَا من أولاد العالم العلامة السيد عبد الله بن سالم البصري، وهي بباب العمرة، أحد أبواب المسجد الحرام، اشترتها أم مولانا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل

رب العالمين، نصره الله وأدام عزته آمين، بثمن يقرب من ألف مِثْقَالِ ذَهَبٍ مَطْبُوعَةٍ، وحَبَّسَتْهَا على من يقرأ الختمة من القرآن في كل يوم، وهم جماعة من الطلبة عُيِّنُوا لذلك، والتزموا القيامَ به، وعلى من يُدَرِّسُ صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه، أُنْتُدِبَ لهذا الْوَظِيفِ الفقيهُ العالم السكندراني المذكور، واسم خَرَاجِ الدار المذكورة في كل شهر، على قسمة معينة كُتِبَتْ لهم في حُجَّةٍ هي بأيديهم، وصَدَّرَتْ، حفظها الله، ناظرا على الدار المذكورة والتصرف في مستفادها المذكور، التاجرَ الْأَرْضَى، الحاج الخياط قصارة الفاسي، أحدُ التجار المجاورين، وكنت أنا عبد الله، تَوَلَّيْتُ عقدة الشراء من أولاد العالم المذكورين، بِتَقْدِيمٍ لي على ذلك، من السيدة حفظها الله" (الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص ٥٨٠ – ٥٨١).

ولعل هذه الأميرة المغربية، كانت على علم بوجود أوقاف مغربية وغير مغربية بالحرمين الشريفين، فأرادت أن تنافس هي أيضا في هذا الباب الشريف الذي يضمن استمرار العلم والعلماء بهذه البقاع الطاهرة.

وأما ما يتعلق بالمقررات، فإنه يمكن استخلاص ذلك – أوبعضه- من خلال بعض التراجم التي وردت في بعض الرحلات، من ذلك مثلا، ما قاله الطيب الشرقي، حين طلب منه بمكة المكرمة صاحبُهُ الفقيه أبوعبد الله محمد بن عبد الله الفيلالي أن يُدَرِّسَ الطلبة الهنود الذين كانوا معه: " وسألني أن أُقْرِئَهُمْ طرفا من تفسير البيضاوي، فَتَعَلَّلْتُ له بأني لست بتلك المثابة، وبأني لا كُتُبَ لي ولا حواشي أستعين بها على ذلك، وأنه لا يَصِلُهُ أن نتقدم عليه لشهرته هنالك ومعرفة الناس به، فأبى أن يقبل ذلك، وما زاد إلا إقراءه، وما قصده إلا انتفاعنا فقط، فساعفناه بذلك في تلك الأيام التي انقضت كالأحلام، وكان يحضر هو وولده وناس كثيرون"(ابن الطيب، ٢٠١٨م، ج٢، ص ٣٧٨)، ثم إنه حين تحدث عن الشيخ محمد بن محمد قاضي زاده الأنصاري، الشهير بالقاضي عيد الذي لقيه بمكة المكرمة، قال بعد سرد مؤلفاته:" وأحضر لنا وَلَدَيْهِ الشيخ حنيف الدين، والشيخ زين العابدين، وكلاهما له معرفة

وحُسْنُ خُلُقٍ، والأول هو النائب عن والده في التدريس بالحرم الشريف"(ابن الطيب، ٢٠١٨م، ج٢، ص ٣٧٩).

وقد جرت العادة عند العلماء المغاربة والمشارقة، أن تكون مؤلفاتهم مما هو مقرر للطلبة في المدارس والجوامع، ولا تخرج هذه المؤلفات عن العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية المختلفة، إضافة إلى الأدب العربي، غير أن الملاحظ من خلال المؤلفات المذكورة في بعض تراجم هؤلاء العلماء، أنهم كانوا يُدَرِّسُونَ أيضا كتب التصوف، سيرا على الثقافة التي كانت منتشرة في العالم الإسلامي.

وهذا ما يَظْهَرُ بوضوح في رحلة الوزير الإسحاقي، حيث سرد بعض مؤلفات الشيوخ الذين التقى بهم وحَلَّاهُمْ ببعض كلامه، والتي تجمع بين علوم الشريعة والأدب والتصوف، وربما كان هذا هو السبب في عزوف بعض الرحالين المغاربة عن طلب العلم بالحرمين الشريفين، بل وإيثار طلب العلم بالقاهرة عما سواهما، كما رأينا مع الحضيكي السوسي.

ثالثًا- المكتبات بالحرمين الشريفين:

ما يقال عن المدارس بالحرمين الشريفين، يمكن أن يقال أيضا عن المكتبات، بحيث لا نكاد نظفر إلا بالنزر اليسير من المعلومات حول هذا الموضوع، ومع ذلك، فهي تكتسي أهمية بالغة، حيث نستطيع من خلالها إدراك حِرْصِ العثمانيين يومئذ على تغليب كتب مذهب على آخر، باعتباره المذهب الرسمي للدولة، يقول محمد بن عبد السلام الناصري عن الكتب التي شاهدها بمكة المكرمة:" مُجَلَّدَانِ من ابن التلمساني على الجلَّاب إلى الحج، وأَعْجِبْ بِهِ مِنْ فقيه حافظ ورع زاهد في الدنيا، وكتاب المُجْمَلُ في اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء الجوهري –اللغوي–، في مجلد كثير الفوائد سَهْلِ التناول، والأول من الفاكهاني على الرسالة إلى آخر الصلوات، وهو شرح عديمُ النَّظِيرِ، لا أظن الرسالة شرحها متقدم ولا متأخر مثله، وحواشي الشيخ زكرياء الأنصاري على تفسير البيضاوي، وهي مختصرة محررة جامعة على عادته في مؤلفاته، في سِفْرٍ رُباعي مَدْمُوجٍ، وتَبْصِرَةُ اللخمي

المالكي، كاملة في أربعة أسفار بخط حسن مغربي من أحباس المسجد الحرام، ولم أكن رأيت منها في عمري إلا قسطا في الخزانة الناصرية ولم تُكْمَلْ بها.

وبمكة من الكتب، سِيَما في فقه الحنفية، العجبُ، وهي كاسدةٌ جِدّاً لا يكاد يباع منها شيء إلا بالموسم، ومما وجدته يباع بالمسجد الحرام: صحيح ابن حبان، ومُشْكَلُ الآثار، للطحاوي وهو كتاب كبير، والمؤتلف والمختلف للذهبي، والتَّجْرِيدُ، له، مختصر جامع الأصول، وعندنا في الخزانة الناصرية جزء من أصله، ومما وجدته يباع أيضا: الأحاديث المختارة للضياء المقدسي، أبوالحسن السندي على مسند الإمام أحمد في ثلاثة أجزاء، وقد اشْتُرِيَ لأميرنا نصره الله، فَجِيءَ به له، وسنن الترمذي والنسائي وهما بالخزانة الناصرية،كبقية الستة"(التمكروتي، ٢٠١٨م، ج٢، ص٧٣).

رابعًا- أثر الحركة العلمية على التواصل بين المغرب الأقصى والجزيرة العربية:

على أن هذه الحركة العلمية في هذا القرن بما لها من مميزات وخصائص، والتي تحدثنا عنها في المحور الأول، تحمل في طياتها دلالات متعددة، حَسْبُنَا مِنْهَا، أن نشير إلى ما لَفَتَ إليه كبارُ العلماء المغاربة المعاصرين أنظارَ طَلَبَتِهِمْ منذ ما يقارب نصف قرن من الزمان، للتأكيد على تلك الْعُرَى الوثيقة والقوية بين المغرب الأقصى والجزيرة العربية، خاصة مع تشجيع ملوك الدولة العلوية الشريفة على العلم والعلماء، بل واصطفاف بعض الملوك مِنْهُمْ في زمرة العلماء.

وهذا، كان له أثره القوي على الحياة العلمية بالمغرب وبالحرمين الشريفين بالجزيرة العربية بخاصة، وهنا لابد من أن أشير إلى ما قاله شيخنا الأستاذ الدكتور عباس الجراري حفظه الله، منذ ما يقرب من نصف قرن، حيث قال: "وإذا كان لمثل هذه الهجرات الجماعية تأثير في طبع المناخ الحضاري والثقافي في المغرب بسمات العروبة المبرِزة لملامح الجزيرة العربية، فإن الهجرات الفردية كان لها أكبر الأثر على تكييف المسيرة السياسية لتاريخ المغرب، سواء حين حل إدريس بن عبد الله بن حسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨ م، فبايعه المغاربة وأنشؤوا تحت لوائه " الدولة الإدريسية "، أوحين وَفَدَ في أواخر القرن السابعِ

الحسنُ بن القاسم، المعروف بالداخل، والمتصل نسبه بعلي رضي الله عنه، وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق محمد النفس الزكية، وأصله من "ينبع النخل" في الحجاز، وهوجَدُّ الملوك العلويين الذين يَعْتَلُونَ عرشَ المغرب منذ ثلاثة قرون ونصف، والذين يعملون باستمرار على تأكيد الروابط وتمتينها بين البلدين، وهي روابط تصل أحيانا إلى المصاهرة، على حد ما تم في عهد السلطان سيدي محمد بن عبدالله الذي زَوَّجَ كريمته لأمير مكة الشريف سرور، ومثل هذه الظاهرة، تؤكد أن الهجرات لم تكن من طرف واحد، أي من الجزيرة العربية إلى المغرب فحسب، ولكنها كانت تتم من المغرب إلى أرض الجزيرة العربية، وتتمثل جَلِيَّةً في وفود الحجاج، وخاصة منهم الطلبة والعلماء الذين كانوا ينهضون بدور التبادل الثقافي بين البلدين"(الجراري، ١٩٧٧م، ص٥٥ – ٥٦).

فلعله من الملاحظ أن الدكتور عباس الجراري يشير إلى نشاط الرحلات المغربية في التاريخ العلمي والثقافي المغربي بعامة، وإلى القرن الثاني عشر بخاصة، وذلك حين أتى على ذكر تزويج السلطان محمد بن عبد الله لإحدى كريماته بشريف مكة يومئذ سرور بن ساعد، وهو الحدث الذي كان له أثره البارز على تمتين الروابط الأخوية بين المغرب الأقصى والجزيرة العربية من جهة، وعلى تشجيع العلم والعلماء على الرحلة إلى الحرمين الشريفين، بما توافر من الظروف المساعدة على الاستقرار لطلب العلم أوللتدريس، من خلال كثرة الأوقاف التي كان يوقفها ملوك الدولة العلوية وأميراتهم لتشجيع الحركة العلمية.

فَعَنْ هذا الزفاف الذي أشار إليه الدكتور عباس الجراري، قال أبوالعباس الناصري: "كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحب الفخر، ويُعنى به، وله رغبة في الخير وأهله، ولما كان سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله بالمحل الذي أكرمه الله به بلدا ومَحْتِداً، رغب السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في مصاهرته، وسمحت نفسه الشريفة ببذل كريمته.

فَلَمَا دخلت سنة اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَمئة وَألف، وعزم ركب الْحَاج المغربي على السّفر إِلَى الْحجاز، بعث مَعَهم السُّلْطَان الْمَذْكُور ابْنَته وزفها على بَعْلهَا الْمَذْكُور، وَبعث وَلَده الأَكْبَر

وخليفته الْأَشْهر، اَلْمولى عَليّ بن مُحَمَّد لإِقَامَة فَرِيضَة الْحَج، وَمَعَهُ شقيقه الْمولى عبد السَّلَام صَغِيرا دون بُلُوغ ليَكُون مَعَ أُخْته، وَكِلَاهُمَا فِي صُحْبَة الركب المغربي كَمَا قُلْنَا، وأصحبهما هَدِيَّة لأمير طرابلس وهدية لأمير مصر وَالشَّام، وهدية عَظِيمَة لأهل الْحَرَمَيْنِ الشريفين، ومَالاً كثيرا يُفَرَّقُ على أَشْرَاف الْحجاز واليمن، وجوائز سَنِيَّةً للْعُلَمَاء والنُّقَبَاءِ وأرباب الْوَظَائِف بِمَكَّة وَالْمَدِينَة، وَبعث مَعَهُمَا من وُجُوه أهل الْمغرب، وَأَوْلَاد أُمَرَاء الْقَبَائِل وأشياخهم، وَمن أَكَابِر خُدَّامِهِ وَأَصْحَابِ أشغاله بالخيول المسومة وَالسِّلَاح الشاكي والشارة الْحَسَنَة، وَمَا تحدث بِهِ أهل الْمشرق دهرا، وَكَانَ فِي جَهَازِ ابْنة السُّلْطَان، مَا يزِيد على مئة ألف دِينَار من الحلَى والياقوت والجوهر، وَكَانَ يَوْم دُخُولهَا إِلَى مَكَّة يَوْمًا مشهودا، حَضَره عَامَّة أهل الْمَوْسِم الْأَعْظَم من الْآفَاق، وتناقلت حَدِيثه الركْبَان والرفاق (الناصري، ١٩٥٦م، ج٨، ص٣٤)"[١].

فلا يخفى ما يروم إليه الناصري من خلال العبارات التي عبر بها عن هذا الحدث المتميز، كما لا يخفى عن المتلقي دلالات قوله: "وهديةً عَظِيمَة لأهل الْحَرَمَيْنِ الشريفين"، فالْعُرَى المتينة بين الأسرة الملكية العلوية الشريفة وبين أهل الحجاز، تقتضي هدايا عظيمة على قدر عظمة العلاقة التي تجمع بينهما؛ هذا، إلى جانب تنصيصه على حضور طبقة العلماء ضمن المخصوصين بهذه الهدايا، تشجيعًا لهم، واعترافًا أيضا بدورهم المتميز في نسج العلاقة الأخوية المتينة بين الْقُطْرَيْنِ الشقيقين، وهذا ما أكد عليه العلامة الدكتور عبد الهادي التازي -قبل نصف قرن أيضًا- حين كشف لأول مرة عن اسم هذه الأميرة التي بَنَى بها الشيخ سرور بن ساعد، وعن اسم أميرة أخرى، أغفلت ذكرَ اسمها المصادرُ التاريخية المغربية، حيث قال وهو يتحدث عن العلاقات المتميزة بين المغرب والحجاز خلال هذا القرن الثاني عشر الذي نحن بصدده: "لقد وصلتنا سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م- ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م أنباء عن زفاف أميرتين مغربيتين، هما ابنتا السلطان سيدي محمد بن عبد الله أو(محمد الثالث) -كما تسميه المصادر الحديثة - زفافهما إلى قصور مكة، حيث تزوج الأمير الشريف سرور الأميرة

(١) وراجع أيضًا: (ابن الطالب، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٩).

لَالَّة لُبَابَة، بينما تزوج ابنه الأميرة حَبِيبَة، إنه حدث يستوقفنا في حد ذاته... لقد أصبح القصر الملكي بالعاصمة المغربية يتوفر على لائحة دقيقة بالجهات التي كان على عاهل المغرب أن يصلها سنويا عن طريق ركب الحجاج"(١).

فبقدر ما يدل كل هذا عن العلاقات القوية الرابطة بين الملوك العلويين والجزيرة العربية؛ فَإِنَّ هذا يدل أيضا على أن ملوك الدولة العلوية بالمغرب، كانوا يحرصون الحرص كله على تخصيص جزء من ميزانية الدولة –بتعبيرنا المعاصر– لأوقاف الحرمين الشريفين، حتى تظل المؤسسات العلمية بالدرجة الأولى، دائمة الاشتغال، ومستمرة في أداء رسالتها في تلك البقاع المباركة. لهذا، فإننا نجد المؤرخين المغاربة على عهد هذه الدولة العلوية الشريفة، يحرصون كثيرا على ذكر المبالغ المالية التي كان يرسلها السلطان مع ركب الحاج المغربي،كلما تحرك نحوالديار المقدسة لأداء فريضة الحج، من ذلك على سبيل المثال فقط، قولُ أبي العباس الناصري:"وَفِي هَذِه السّنة، أَعنِي سنة خمس وَخمسين وَمِئَة وَألف، سَافر الركب الْمغربي إِلَى الْحَرَمَيْنِ الشريفين، فَبعث مَعَه أَمِير الْمُؤمنِينَ الْمولى عبد الله، رَحمَه الله، هَدِيَّة نفيسة، فِيهَا ثَلَاثَة وَعِشْرُونَ مُصحفا بَين كَبِير وصغير، محلاة بِالذَّهَب، مُرَصَّعَةً بِالدُّرِّ والْيَاقُوتِ، وَمن جُمْلَتهَا، الْمُصحف الْكَبِير العقباني الَّذِي كَانَ الْمُلُوك يتوارثونه بعد الْمُصحف العثماني الَّذِي كَانَ عِنْد بني أُميَّة بالأندلس...وَبعث السُّلْطَان رَحمَه الله مَعَه أَلفَيْنِ وَسَبْعمِئَة حَصَاة من الْيَاقُوت الْمُخْتَلف الألوان للحجرة النَّبَوِيَّة، على الْحَالِّ بهَا أفضلُ الصَّلَاة وأزكى التَّحِيَّة، وَتقبل الله من السُّلْطَان عمله وأجزل ثَوَابه(٢)".

فهذا السخاء الذي لا حدود له، يدل على تلك الأواصر القوية التي كانت تجمع بين المغرب الأقصى والجزيرة العربية، كما أنه يعكس الرغبة الأكيدة لدى ملوك الدولة العلوية

(١) عبد الهادي التازي، "**بعض بيوتات وآثار الحرمين الشريفين من خلال الوثائق الدبلوماسية وحجج الوقف المغربية**"، مجلة دعوة الحق المغربية، (السنة الثامنة عشرة شعبان رمضان ١٣٩٧هـ/ أغسطس سبتمبر ١٩٧٧م)، عدد مزدوج ٧ – ٨، ص٨٣.

(٢) (الناصري، **الاستقصا**، ج٧، ص١٥٩).

الشريفة، على الدعم المستمر للحركة العلمية بالحرمين الشريفين بخاصة، وللمجتمع عامة بالحرمين الشريفين من خزينة الدولة المغربية، وهذا ما كان يثير تخوفات الدولة العثمانية حيث "عكس تقرير سري رفعه سفير عثماني إلى السلطان عبد الحميد، عَكَسَ فيه التخوفات التي كانت تهيمن على الباب العالي، من المركز الذي كان ينعم به ملك المغرب في سائر بلاد المشرق العربي[١]".

ودائما في إطار هذا المحور الذي يعكس تلك العلاقة المتينة بين الدولة العلوية الشريفة والجزيرة العربية، والتي كانت من بين ثمرات العلاقات العلمية بين المغرب والحرمين الشريفين، لابد من أشير إلى تلك الأموال التي رافقت الأميرة المغربية خناثة بنت بكار حين حَجَّتْ عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م، وهي الحجة التي كانت محور رحلة الوزير الإسحاقي التي اعتمدناها في هذا البحث، وقد قال عن هذه الْحَجَّةِ مؤرخُ الدولة العلوية عبد الكريم بن موسى الريفي: "وأنفقت في الحرمين الشريفين أموالا جليلة، وذخائر خطيرة، وفرقت أموالا كثيرة على الأشراف والأعيان، وعلى الفقراء والمساكين، وعلى الفقهاء والْعُرْبَانِ"(الريفي، ١٩٩٢م، ص١٣٧).

وقد فصَّل الوزير الإسحاقي صَرْفَ هذه الأموال بقوله:"ومن الغد من يوم نزولنا بالينبع، قَدِمَ مجموعة من الشرفاء أهلِ ينبع على السيدة والدة مولانا نصره الله، ففرحت بهم وكَسَتْهُمْ كَسَاوِيَ مَلِيحَةً من الْمَلْفِ والكَتَّانِ وحُزُمٍ، وأكرمتهم ؛ دفعت لهم أعزها الله مئتين مثقالا ذَهَباً مَطْبُوعَةً، كانت تأتيهم أيام مولانا أمير المؤمنين مولانا إسماعيل رحمه الله، وأعطتهم مئة مثقالٍ ذَهَبٍ من عندها، خمسين للشرفاء، وخمسين للشريفات أولاد عائشة، نفعها الله بذلك"(الوزير الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص٤٨٦).

واللافت للنظر في هذا النص، أن الأميرة المغربية أتحفت أهل ينبع بمالها الخاص، وبِصِلَةٍ كانت تأتيهم منذ عهد السلطان المولى إسماعيل، زَوْجِهَا، مما يعني، أن الملوك العلويين كانوا يرسلون أموالهم إلى الحرمين الشريفين، إضافة إلى أهل ينبع، أَجْدَادِهِمْ، كلَّ عام، لتعزيز

---

(١) التازي، **بعض بيوتات ومآثر الحرمين الشريفين**، دعوة الحق، عدد ٧- ٨ ص ٨٦.

أوقافهم بالبقاع المقدسة، وهو ما يتناسق مع ما أشار إليه علماء المغرب في أقوالهم التي استشهدنا بها سابقا؛ فاستمرار العلاقات المتينة بين المغرب والجزيرة العربية، يقتضي بالضرورة استمرار تعزيز الأوقاف المغربية بالحرمين الشريفين، لتستمر في أداء رسالتها العلمية والدينية والاجتماعية عمومًا.

ثم إن حج الأميرة المغربية خناثة بنت بكار هذه، كانت السببَ في تأسيس "دار المغرب بمكة المكرمة"، كما قال الدكتور عبد الهادي التازي(١)، فقد سَبَقَ وأن أشرنا إلى أنها اشترتها بثمن يقرب من ألف مثقال ذهب مطبوعة، وأوقفت عليها أوقافا كثيرة لضمان أداء رسالتها على الوجه المطلوب(الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص٥٨٠-٥٨١)، لِيَظَلَّ هذا الدعم السلطاني على زَخَمِهِ وضَخَامَتِهِ إلى نهاية هذا القرن الثاني عشر، لِتُفْتَحَ مع القرن الذي يَلِيهِ صفحةٌ أكثرُ تَأَلُّقاً من التعاون العلمي الرسمي بين المغرب والحجاز، يقول المؤرخ الضعيف الرباطي: "وفي هذه السنة (١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م) وجه السلطانُ الحاجَّ المُكِّي بَرْكَاشْ الرباطي لِتِطَّاوْنِ، ليحمل معه في البحر مئتي قنطار صدقةً، يفرقها في الشام وفي بيت المقدس، ثم يرجع لِمَكَّةَ، ويفرق بها وبالمدينة أيضا، أدام الله عزهما، فأقام بِتِطَّاوْنَ خمسة أشهر(الرباطي، ٢٠٠٧م، ج١، ص٣٤٨)"(٢).

كل هذا، كان مما يزيد هذه العلاقة المتميزة بين المغرب والجزيرة العربية متانةً واستمراراً، وهو ما جعل كثيرا من الباحثين المغاربة يُنَوِّهُونَ بِمَتَانَتِهَا وبِرُسُوخِهَا وبِصَفَاءِ وُدِّها منذ قيام الدولة السعودية، فأشاروا إلى أن هذه العلاقة الخاصة،كانت –وما تزال–

(١) راجع المقدمة الوافية التي قدم بها المحقق لرحلة الوزير الإسحاقي، وبخاصة ج١، ص٩٨، وما بعدها.

(٢) القنطار عندنا في المغرب زِنَتُهُ مئة كيلوغرام، هذا، وقد أشار الضعيف الرباطي إلى أن السلطان المولى محمد بن عبد الله " في سنة سبعة وتسعين ومئة وألف المذكورة، وجه المال صدقة مع ركب الحجاج للأشراف بالمدينة شرفها الله، وللأشراف الذين كانوا بمكة أعزها الله، وبعث المال أيضا لعلماء أهل مصر..."(الرباطي، ٢٠٠٧م، ج١، ص٣٤٧).

علاقةً لا يشوبها التَّقَلُّبُ أوالتغير حسب الظروف والمناسبات، وإنما هي علاقة متينة أُسِّسَتْ أصلا على قواعد المحبة الأخوية، والْأَوَاصِرِ الجامعة بين الأشقاء، وهذا ما أشار إليه الأستاذ عبد الهادي البرجالي، في وقت مبكر من استقلال المغرب عن فرنسا، حيث قال: "وفي نطاق العلائق مع العالم العربي، كان للمغرب على امتداد الدولة العلوية، سياسةُ ارتباطٍ متينٍ بالحجاز على نحو مباشر، وإذا كانت الدبلوماسية المغربية تتعرض أحيانا لتغيرات في علاقاتها مع الدول الأخرى، نتيجة التقلب الذي قد يحدث في ظروف علاقاتها مع هذه الدول الأخرى، فإن الأمر بالنسبة للحجاز يختلف، إذ إن متانة العلاقة معه،كانت قاعدة ثابتة في صلب الدبلوماسية المغربية لا تختلف.

والواقع أن ربط العلائق مع الحجاز، كان في مقدمة العلاقات المغربية على عهد العلويين، ويتجدد الاهتمام بتنمية هذه العلائق من السابق منهم إلى اللاحق خلال العصور...وفي هذا النطاق، نرى أن من مظاهر هذا التواصل ، ما دأب عليه الملوك العلويون من مُهَادَاةِ أمراء مكة وربط الصلة بأهلها، وكان مما يُهْدَى إلى أمراء مكة: المصاحف الثمينة والنفائس المادية المختلفة. ولم تكن العلائق الحجازية المغربية منحصرة في نطاق اللياقة الدبلوماسية وما إليها، وإنما كانت هناك – إلى جانب ذلك – بعض الاتصالات العلمية واقعة بين علماء الحجاز وعلماء المغرب، والمثير فيها لِلْالْتِفَاتِ، أنها وقعت في بعض الأحيان بدافع من ملك المغرب نفسه"(البرجالي، ١٩٦٧م، ص١٥٦)، وهذا ما أثمر فيما بعد، تبادلا للآراء على أعلى المستويات، بين علماء المغرب وعلماء الجزيرة العربية، بعد قيام الدولة السعودية الأولى، وظهور الحركة الإصلاحية مع الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله، وبخاصة خلال العقد الثاني من القرن الثالث عشر، حين أرسل السلطان المولى سليمان العلوي، عددا هاما من علماء المغرب للوقوف ميدانيا على طبيعة هذه الدعوة الإصلاحية، وقد أَوْلَتْهُ المصادر المغربية خلال هذه الفترة عنايةً خاصة، لما يَكْتَسِيهِ من دلالات خاصةٍ عن العلاقات المتينة الراقية بين الأسرتين العلوية الشريفة بالمغرب، والسعودية العريقة بالجزيرة العربية.

وعليه، فالعلاقة بين المغرب والحجاز، ليست علاقة مَصَالِحَ ومُنَاسَبَاتٍ فقط، تَتَقَلَّبُ بِتَقَلُّبِ الظروف التي تستدعي هذه المصلحة أوتلك، وإنما هي علاقة مستمرة لا تعرف الانقطاع، لأنها أُسِّسَتْ أول مرة على قواعد متينة تضرب بجذورها في التاريخ، ثم إنها علاقة أَحْكَمَ نَسْجَهَا العلم والعلماء، كما قلنا من قبل، فكان طبيعيا أن يبارك الله عز وجل فيها، خاصة وأن ملوك المغرب العلويين، كانوا دائما على قدر كبير من العلم، تحصيلاً وعنايةً بأهله وبمدارسه، كما يظهر من سيرة السلطان المولى محمد بن عبد الله الذي اشتهر بتآليفه وبعنايته بالحديث النبوي(١).

وهنا أحب أن أستشهد بكلمة للعلامة المحقق عبد العزيز بن عبد الله، وهو يتحدث عن هذه الروابط العلمية الخاصة التي تجمع بين المغرب الأقصى والجزيرة العربية، حتى شَكَّلَتْ إِرْثاً علميا وحضاريا مشتركًا، يقول: "وقد تبلور نتاج هذه الروابط -علاوة على الرحلات فيما صَنَّفَهُ العلماء من فهارسَ وأَثْبَاتٍ سجلوا فيها إجازاتهم وارْتِسَامَاتِهِمْ وما جَنَوْهُ من ثمارٍ خلال رحلاتهم، فلم يَقِلَّ هذا النوع من المعلومات فائدة ولا عائدة عن مضامين الرحلات، وكانت الصلات حقا متبادلة، إلا أنها نادرة بالنسبة للواردين على المغرب من الشرق، ومع ذلك، فإن فكرهم النابع من إجازاتهم ودروسهم ومؤلفاتهم، كان يرحل إلى المغرب مع العائدين ؛ فَيُسْهِمُ بحظ وافر في إثراء المكتبة العربية الإسلامية في المغرب العربي، وما زالت مكتباتنا العامة والخاصة تَزْخَرُ بنوادر المخطوطات الشرقية التي ضاع بعضها في الشرق، واحتفظ المغرب بأصولها الفريدة (عبدالله، ١٩٨٦م، ص ١٦)".

لذلك، فإنه من الطبيعي أن يكون التركيز على أثر الحركة العلمية، أمراً يفرض نفسه كلما دعت الضرورة إلى الحديث عن العلاقة المتينة بين المغرب والجزيرة العربية، لأنها أَحْكَمَتْ نَسْجَ هذه العلاقة كما قلنا، ثم إنها مرتبطة أشد الارتباط بهذا الدين الإسلامي العظيم الذي جَعَلَ اللهُ جل وعلا الْعِلْمَ قُطْبَ رَحَاهُ، وعَمُودَهُ الْأَسَاسَ.

---

(١) راجع في هذا الباب على سبيل المثال لا الحصر، دراسة للأستاذ عبد الهادي الحسين (الحسين، ١٩٨٥م، ص١٦١).

وهنا، لابد وأن أشير إلى أن بعض علماء مكة المكرمة، وإدراكا منهم لمتانة الروابط التي ينسجها العلم والعلماء، وتأكيدا لما أشار إليه العلامة عبد العزيز بن عبد الله سابقا، كان قد عزم على أن يرسل كتبه هدية إلى السلطان المولى إسماعيل، لكنَّ موانعَ حَالَتْ دون ذلك، فَتُوُفِّيَ المولى إسماعيل، ولما حجَّت زوجته خناثة بنت بكار، أرسلها مع الوزير الإسحاقي هديَّةً إلى السلطان المولى عبد الله، إِنْفَاذاً لما كان قد عزم عليه من قبل، قال الإسحاقي عن الشيخ عبد الله السكندراني الضرير:"وحدثنا بمصنفاته في التفسير والحديث وعلم الكلام وغير ذلك، فإذا هي شتى، منها: تفسير بالنظم، يزيد على ثلاثة آلاف بيت في الرجز، وكان عزم على توجيه مؤلفاته إلى المغرب، وطلب مني أن أحملها حتى أوصلها إلى بَيْنَ يَدَيٍّ مولانا أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن مولانا أمير المؤمنين نصره الله، فقلت: نحملها على بركة الله، ونُقِرَّ عَيْنَكَ بذلك، قال لي: كنت عزمت على هذا الغرض في حياة مولانا إسماعيل رحمه الله، فلم يُقَدَّرْ لي ذلك، ثم بعد ذلك بدا له في إمساكها عنده، وهو رجل من أهل الخير والقناعة في الدنيا"(الإسحاقي، ٢٠١٧م، ج٢، ص٥٧٩).

فكل هذا، يؤكد مدى الأثر القوي للعلم والعلماء على مَدِّ جسور التَّوَاصُلِ الْبَنَّاءِ والمستمر بين الجزيرة العربية والمغرب، على كل المستويات، خاصة حين يكون العلم والعلماء، تَدْرِيساً وتَأْطِيراً، في صُلْبِ اهْتِمَامِ أَوْلِيَاءِ الْأَمْرِ.

الخاتمة:

من خلال هذا البحث المتواضع، يكون قد تَبَيَّنَتْ لنا معظم جوانب الحركة العلمية بالحرمين الشريفين، سواء منها ما تعلق بالشيوخ والعلماء الذين أتى الرحالون المغاربة في هذا القرن الثاني عشر على ذكرهم أوتَحْلِيَتِهِمْ في التراجم التي عقدوها لهم، كما نَوَّهُوا إلى ما أخذوه عنهم من مسموعات أومقروءات أومؤلفات أوما إلى ذلك، والذي بدا لنا متفاوتا بين هذه الرحلة أوتلك، هذا فضلا عن الإجازات التي تبادلوها معهم، لأن غالبية الرحالين المغاربة في هذا القرن، كانوا من العلماء والحفَّاظ والفقهاء، والذين رحلوا في مهمات رسمية كُلِّفُوا بها

من طرف السلطان، خاصة وأن كثيرا منهم كان من كبار الدولة العلوية بالمغرب خلال هذا العهد.

كما أننا وقفنا على ما يتعلق ببعض المدارس التي كانت من ضمن الأوقاف المغربية بمكة المكرمة بخاصة، هذا إلى جانب المكتبات التي وجدنا لها صدى واضحا في بعض هذه الرحلات، بما رصده الرحالون من تحديدٍ لتخصصاتها الفقهية أوالعلمية.

كما تَبَيَّنَ لنا أيضا، ذلك الأثر القوي الذي تركه تشجيعُ سلاطين الدولة العلوية الشريفة لهذه الحركة العلمية بمكة المكرمة والمدينة المنورة، بما داوموا عليه من وَقْفٍ للأوقاف المختلفة، أوبإرسال المكافآت والصدقات والهِبَاتِ والمِنَحِ إلى القائمين على العلم وأهله، من الطلبة والعلماء والمدرسين والأئمة والخطباء بالمسجد الحرام أوبالمسجد النبوي الشريف.

كما أننا وقفنا على ما تمخض عن هذه الحركة العلمية المباركة ببلاد الحرمين الشريفين، من نَسْجٍ –وبإحكام– لعلاقات أخوية متينة بين المغاربة وبلاد الحرمين، والتي أحكم نَسْجَهَا العلماء منذ البداية، والذين كانوا في المحل الرفيع من التقدير والاحترام لدى أولياء الأمور في البلدين كليهما، لِتَنْضَمَّ آصِرَةُ الدَّمِ إلى آصرة الدين والعقيدة والعلم، وكل ذلك سَهَرَ عليه وأَسَّسَ لَهُ علماء، أرادوا منذ البداية أن تظل هذه العلاقات المباركة مُثْمِرَةً تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.

المصادر والمراجع:

الإسحاقي، الشرقي بن محمد. (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م). *رحلة الوزير الإسحاقي الوزير الحجازية*. دراسة وتحقيق: الأستاذ محمد الأندلسي. ط١. دار أبي رقراق للطباعة والنشر. الرباط. المغرب.

البرجالي، عبد الهادي. (١٣٩٧هـ/ ١٩٦٧م). "لمحات الديبلوماسية المغربية في عهد العلويين". *مجلة دعوة الحق المغربية*. السنة العاشرة شعبان/ رمضان، ع.٩٦.

بنعيسى، أحمد بويوزان. (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م). *فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج، من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين*. ط١. جامعة أم القرى، شعبان / شتنبر. مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية.

التازي، عبد الهادي. (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م). "بعض بيوتات وآثار الحرمين الشريفين من خلال الوثائق الدبلوماسية وحجج الوقف المغربية". *مجلة دعوة الحق المغربية*. السنة الثامنة عشرة، شعبان/ رمضان. ع. ٧ – ٨.

التمكروني، محمد بن عبد السلام الناصري. (٢٠١٨م). *الرحلة الناصرية الكبرى*. تحقيق وتقديم: الدكتور المهدي الغالي. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وأبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠١٨.

الجراري الدكتور، عباس. (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م). مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية. *مجلة الفيصل السعودية*. شوال/ سبتمبر. السنة الأولى. العدد الرابع.

الحسين، عبد الهادي. (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م). "موقف السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي من كتب الفروع". *مجلة دعوة الحق المغربية*. جمادى الثانية/ مارس. ع. ٢٤٦.

الدرعي. أحمد بن محمد الناصري. (٢٠١١م). *الرحلة الناصرية*. تحقيق وتقديم: عبد الحفيظ ملوكي. ط١. دار السويدي للنشر والتوزيع. أبو ظبي.

الرباطي، محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد. (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م). *تاريخ الضعيف الرباطي*. دراسة وتحقيق: الأستاذ محمد البوزيدي الشيخي. ط٢. مطبعة دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. المغرب.

الريفي، عبد الكريم بن موسى. (١٩٩٢م). *زهر الأكم*. تحقيق ودراسة: آسية بنعدادة. ط١. مطبعة المعارف الجديدة. الرباط.

الزَّيَانِي، أبوالقاسم. (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م). الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور بَرّاً وبَحْراً. تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفيلالي. ط٢. دار نشر المعرفة. الرباط.

السوسي. محمد بن أحمد الحضيكي. (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م). *الرحلة الحجازية*. ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر. ط١. مركز الدراسات وإحياء التراث. الرباط. المغرب.

الطالب، عبد السلام بن عبد القادر بن محمد بن عبد القادر. (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).*إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع*. تحقيق: محمد حجي. ط١. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.

الطيب، محمد بن الطيب الشرقي الفاسي. (١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م). *الرحلة الحجازية*. تحقيق وتقديم: نور الدين شوبد وحسناء بوتوادي. ط١. دار أبي رقراق للطباعة والنشر. الرباط. المغرب.

عبدالله، عبد العزيز. (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م). "الرحلات الحجازية المغربية كشف لأمجاد الجزيرة العربية". *مجلة دعوة الحق المغربية*. ربيع الثاني/ دجنبر ١٩٨٦م. ع. ٢٦١.

العياشي. عبد الله بن محمد أبوسالم.(١٩٩٢م). *الرحلة الحجازية المسماة ماء الموائد*. تحقيق وتخريج وتعليق: آل شيخ أحمد فريد المزيدي. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.

القادري. أحمد بن عبد القادر القادري، أبوالعباس. (١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م). *نسمة الآس في حَجَّةِ سيدنا أبي العباس*. تقديم وتحقيق: الأستاذ المصطفى مدوحي. ط١. دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب.

القادري، محمد بن الطيب. (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م). *نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني*. تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق. ط١. مكتبة الطالب. الرباط. المغرب.

المكي، عبدالعزيز أيت. (٢٠١٥م). "الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية – محاولة ببلوغرافية" ضمن كتاب "الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية". منشورات المجلس العلمي المحلي لزاكورة. ط١. ورزازات. المغرب.

الناصري، أحمد بن خالد الناصري، أبوالعباس. (١٩٥٦م). *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*. تحقيق وتقديم: جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري. ط١. دار الكتاب، الدار البيضاء. المغرب.

الهلالي السجلماسي، أبوالعباس. (٢٠١٢). *رحلة التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام رحلة*. دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي. ط١ . مطبعة الجسور. وجدة. المغرب.

اليوسي. الحسن بن مسعود. (١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م). *الرحلة الحجازية*. تحقيق: الدكتور عبد المجيد خِيَّالي. ط١. سلا. المغرب.

اليوسي، الحسن بن مسعود اليوسي. (٢٠١٣م). *القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم*. تقديم وتحقيق وفهرسة: حميد حماني اليوسي. ط٢. مطبعة فضالة –المحمدية. المغرب.